صورة المتكلم في الخطاب السجالي
رسالة السقيفة لأبي حيان التوحيدي أنموذجا

ذ. سمير لعري
أستاذ بالأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق
وجدة، المغرب

مقدمة

ارتبط مصطلح السجال[1] في الأدب العربي بمعنيين أساسيين وهما التباري والتنافس، اللذين يعكسان البيئة الثقافية والفكرية للمجتمعات، إذ يُعتبر شكلا من أشكال التفاعل الحواري لحسم الخلافات[2]، يتشكل داخل حقول شتى كالسياسة والفلسفة والدين...، يروم فيه كل طرف من الأطراف المتصارعة الدفاع عن تصوراته بشكل ينم عن رغبة في الغلبة والفلج على الخصم، بحيث ينطلق كل منهما من مسلمات لا يمكن التنازل عنها، ويسعى إما إلى إثبات قضية ما، أو نفيها بغية إظهار التفوق وإقناع المتلقي (الجمهور بشكل عام والمتتبع للمساجلة).

إن السجال ليس حكرا على مجتمع دون آخر؛ فقد انتشر في المجتمعات القديمة والحديثة على حد سواء، دون أن ينفي ذلك تغيرات تطرأ بين الحقبة والأخرى... ظاهرة إنسانية تشترك فيها

[1] ورد في لسان العرب لابن منظور في مادة (س، ج، ل): سجال جمع سجُل وسَجل وهو الدلو الضخمة المملوءة ماء، وساجل الرجل باراه، وهما يتساجلان أي يخرج كل واحد منهما في سجله مثل ما الآخر فأيهما نكل فقد غلب. ابن منظور، لسان العرب، دار الصادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،1979، المجلد3، مادة (سجل)ص249.

كما ارتبط السجال في قاموس أكسفورد للمصطلحات الأدبية" بما يكتب للهجوم على رأي أو سياسة، وغالبا ما يستخدم في الخطابات الدينية أو السياسية، وأحينا في الفلسفة والنقد، نقلا عن دراسة مشتركة بعنوان: الخطاب السجالي في الثقافة العربية-مقاربة تأويلية لمعجب العدواني وضياء الكعبي. أنظر الخطاب السجالي في الثقافة العربية مقاربة تأويلية، دار الانتشار العربي، الطبعة الأولى،2012.

[2] نقصد بالخلاف ما أشار إليه حسان الباهي في تمييزه بين الخلاف والاختلاف، إذ يعتبر الاختلاف هو أن يكون المقصود واحدا والطريق مختلفا، أما الخلاف فهو ما يعني أن يكون المقصود والطريق مختلفين...ولذلك نجده يأخذ في بعض الأحيان معنى المضادة، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، أفريقيا الشرق، طبعة 2012ص:12،11..

كل المجتمعات[1]؛ فهو إذن، يتبلور في سياق خلافي، أو ما يسميه بلانتان شروط قابلية الخلاف[2]، إذ "يقوم على رأيين متعارضين متقابلين يسعى كل واحد منهما إلى التغلب على الآخر، وهذا يحتم مبدئيا قطيعة بينهما"[3].

وعليه، ستحاول هذه الدراسة الكشف عن بعض خصوصيات هذا النوع من الخطاب، عبر مقاربة صورة أبي بكر في رسالة السقيفة[4]،باعتبارها تنضوي تحت هذ النوع من التخاالبحث في الآليات والاستراتيجيات الحجاجية التي ساهمت في تشكلها ضمن سياق سجالي مخصوص، إذ لا يمكن الفصل بين القول وصاحبه، فهي علاقة جدلية، **لأن في جدليتهما (المتكلم والكلام) تتجلى العديد من المظاهر الحجاجية**[5]، فأي شكل خطابي يحمل دعوى يهدف إقناع المخاطب بها، يقتضي أن يظهر فيه المتكلم بشكل مقبول أخلاقيا[6]، "**فالسامع لا يقبل التسليم بدعوى ما دون**

1 عبيد حاتم، في تحليل الخطاب السجالي، تعقيب عبد الرزاق بنور علي، كتاب" أهم نظريات الحجاج أنموذجا، مجلة فصول، مصر، العدد2009،75، ص157.

[2] وهي حالة تعارض إثباتين اثنين، على الأقل، مختلفين (متناقضين)متعلقين بنفس المسألة، انظر باتريك شارودو، الاقناع في الخطاب السياسي ،، ترجمة محمد الولي، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، مطبعة النجاح الجديدة، العدد السادس، 2015، ص:86.

[3]باشا العيادي، السجال في الأدب العربي أشكاله ووظائفه، مجلة الأزمنة الحديثة، العدد الخامس، الجاحظ أنموذجا، ص200.

[4] أثارت رسالة السقيفة جدلا واسعا عند القدامى من الدارسين والمحدثين حول صحة نسبها إلي الصحابة رضي الله عنهم(أبو بكر/عمر/علي)، أم إلى التوحيدي، ما يمكن إجماله حول هذه الرسائل هو أنها غير مؤكدة، أي يمكن التيقن من صحتها، فهي تبقى محاطة بالشكوك التاريخية، إلا أننا لا نروم تأكيد أو تفنيد أي ادعاء بقدر ما سنخوض في هذا البحث باعتبارها(الرسالة) خطابا منسوبا إلى الصحابة، تعكس جو التوتر الذي عاشته الأمة بعد وفاة الرسول(ص) وبيعة أبي بكر رضي الله عنه، للاطلاع على ما قيل حولها أنظر ، نور الدين بن بلقاسم، أصداء المجتمع والعصر في أدب أبي حيان التوحيدي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، طرابلس، الطبعة الأولى 1984، ص:56،57 وما بعدها.

[5] يوضح هذه العلاقة محمد سالم محمد الأمين الطلبة أثناء عرضه لتصور ريكو لقطبي الحدث اللغوي، يقول: فالمتكلم مثلا يختار من اللغة العلامات الضرورية ثم يقيم بينها العلاقة الاقة التي توفرها له قدرته ويستدعيها منه المقام، (انظر كتابه، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى ،2008، ص: 160). هنا لا يعنينا تصور ريكو للهرمينوطيقا بقدر ما نعنى بتبيان هذه العلاقة الجدلية بين الخطاب وصاحبه.

[6] ، التحديد الذي وضعه أرسطو لإيتوس الخطيب لا يخرج عن السجايا الثلاث، وهي السداد والفضيلة والبر، وهي الوسائل التي تجعل المتلقي ينظر إلى المتكلم على أنه أهل للثقة ... الهدف من الإيتوس ليس جعل المستمع ينظر إلى لمتكلم على أنه أهل ==

أن يؤمن بصاحبها"[1]، إن الإيطوس استراتيجية حجاجية لتدبير الهوية بما يناسب تمثلات المتلقي وأفق انتظاره، وذلك لكسب ثقته وتعاطفه يضمن بذلك أحقيته بالخلافة على نحو يحسم النزاع لصالحه.

وانطلاقا مما سبق، فإن أبرز الأسئلة ا لتي تثيرها الدراسة هي:

ما هي الوسائل والاستراتيجيات التي بُني بها الإيطوس؟ وكيف يساهم في تأسيس الشرعية السياسية؟

وهل يخضع لخصوصيات الخطاب/السجالي؛ أي يحظى بسمات يُحددها طبيعة هذا الخطاب المشحون؟

إنها جملة من الأسئلة التي ستحاول مقاربة هذا الخطاب، وفق ما تُتيحه النظرية البلاغية من أدوات إجرائية تسعف في الكشف عن الأبعاد الحجاجية للنصوص.

1. الإطار النوعي: الرسالة/المساجلة

إن أصل المساجلة هو الحرب الحقيقية بين طرفين أو أكثر، لكن في هذا النوع الخطابي ليس القصد من السجال هذه الحرب الفعلية والتي تلحق أضرارا مادية في الغالب، وإنما هي تَحول فعل السجال إلى خطاب، أو حرب كلامية، "**إذ تتوارى الرسالة خلف النوع الذي تتقمصه**"[2]، فترسم بذلك طبيعة العلاقة بين المرسل و المتلقي، وهي علاقة سجالية، أفرزها مقام ما (مشحون) أنتج هذا الشكل من الخطاب الذي له خصوصيات معينة[3]، إذ إن تحليل بلاغة هذا النمط لا يمكن أن تتحدد بمعزل عنها، "**فالنوع لا يملي قيودا مرتبطة بالأسلوب والطول والمعجم فقط**،

للثقة وحسب، فالأمر لا يتعلق بمنظور أو هدف أخلاقي، بل بهدف عملي، يجعل المستمع مستعدا لقبول كلام الخطيب والآراء التي يطرحها، انظر الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى 2014، ص:304.

[1] محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى،2016، ص: 177

[3] محمد مشبال، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ، مقاربة بلاغية حجاجية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2015، ص:19.

[3] من بين الخصوصيات التي قد تحضر أو تغيب بشكل متفاوت، القياس المضمر والشتم، الترهيب، الصور المجازية ذات إيحاء هجومي، رفض تسمية الخصم...تعمم بكونها مزيجا بين الحجاج والعدوانية، انظر كتاب في بلاغة الحجاج-نحو مقاربة بلاغية حجاجية، مرجع مذكور، ص: 328،327.

ولكنه يملي قيودا إيديولوجية...إنه يقيد الفكر"[1]، كما أن الإطار العام للرسالة/ المساجلة يحدد أن يكون جديا، فالسياق السجالي هو سياق الغلبة والانتصار. وهو النمط الذي تنتمي إليه رسالة السقيفة؛ حيث تقوم على مراسلات بين أبي بكر وعلي حول تولي الخلافة، إنها "**حوار بين طرفين يتنازعان حول قضية سياسية، وغايته الوصول إلى تسويات وحلول**"[2]، إذ تطرح سؤال من الأحق بتولي أمور السياسة والدين بعد الرسول (ص)؟

2. السياق والمقام التواصلي:

بعد وفاة الرسول(ص) ؛ كانت المشكلة الأولى التي واجهت المسلمين هي من الأحق بتولي السلطة من بعده، فدار حوار حول قضية الخلافة إلى أن استقامت لأبي بكر بإجماع المهاجرين والأنصار، فبلغه معاندة ومنافسة من علي، وهو ما جعله يبعث برسالة مع أبى عبيدة بن الجراح يدعو فيها علي إلى الدخول فيما دخل فيه المسلمون، مؤكدا فيها أحقيته بالسلطة وداعيا إياه إلى تغيير موقفه ومبايعته قبل قيام الفتنة وتفشي العداوة، وهو ما يصرح به في قوله: "**ودعنا نقضي هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل...و اترك ناجم الحقد حصيدا، وطائر الشر و اقعا، وباب الفتنة غلقا**"[3].

3. تأسيس الشرعية وبناء صورة المساجل:

لقد رام أبو بكر في رسم صورته على الظهور بشكل يجعله أهلا للخلافة، وفق سياق مخصوص فرض قيوده وإكراهاته وسلطته، فهو يسعى إلى تأسيس شرعيته بالشكل الذي لا يمكن أن ينافسه غيره(علي)، أي تقوم على أساس التطابق بين شروط الخلافة المبنية على تمثلات

---

[2] نفسه، ص: 51.

يقدم محمد مشبال تصور أليفي ريبول للقراءة البلاغية للنصوص، حيث يعتبر تحديد نوع الخطاب الذي ينتمي إليه النص، إحدى القواعد الأساس في القراءة البلاغية (ص51)، كما أن مراعات الإطار النوعي يظهر إلى أي درجة يكون فن الإقناع محددا بقواعد نوع الخطاب واكراهاته التي يتبلور في إطارها(ص331).

[2] يذهب عماد عبد اللطيف في تحديده للإطار النوعي لحدث السقيفة بوصفه تفاوضا يوجه الاهتمام إلى آليات تسوية النزاع، وتكتيكات التوصل إلى الحل، كما يدرج تلك الأحداث من نوع الخطبة السياسية، انظر مقال "تحليل الخطاب السياسي"، كتاب بلاغة النص التراثي- مقاربة بلاغية حجاجية، إشراف محمد مشبال، دار العين للنشر، طبعة 2013، ص:31.

[3] ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي، رسالة السقيفة، تحقيق ونشر الدكتور ابراهيم الكيلاني، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، 1951، ص:15.

مسبقة لدى المتلقي (مجموعة من المعايير التي تشكل توافق مسبق حول شروط الخلافة) وصورته المبثوثة في الخطاب ككل، لتصبح صورة الشخص (أ) مبنية وفق ما يتصوره (ج) و(د)...

إذ يقول:" إنك جد عارف باستجابتنا لله ولرسوله، وخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا هجرة الى الله تعالى، ونصرة لدينه في زمان أنت فيه في كن الصبا، وخدر الغرارة، غافل، تشبب وتربب، لا تعي ما يراد ويشاد"[1].

يعرض أبو بكر في هذا الملفوظ تضحياته التي قدمها نصرة للإسلام وقت الشدة، بغية إظهار مزاياه وترسيخ صورته الإيجابية التي ستدعم العملية الحجاجية، **"فقد يلجأ الخطيب السياسي إلى عرض كفاءاته ومنجزاته لحمل الجمهور على اتخاذ قرار في صالحه"**، فهو يستحضر صورته ضمن السياق الخارجي (التاريخي) ويجعلها موضوع خطابه لاستدعائها في ذهن المتلقي على نحو يخدم دعواه، كما يستثمر انتماءه لمجموعة معينة[2]؛

هي التي حاربت الى جانب الرسول(ص)[3]، فانتماء أبي بكر إلى الجيل الذي جاهد وضحي في ظروف جد صعبة يكسبه قيمة مستمدة من قيمة تلك الجماعة وما قدمته، واستعماله لضمير الجمع في صياغة خطابه (استجابتنا/ خروجنا) تأكيد على سلطة الجماعة، مقابل ضمير المخاطَب الفرد (إنك جد عارف/ في زمن أنت فيه)[4]، إذ يصبح شكل الخطاب موجها من طرف (أ) إلى (ب) بأنت مقابل نحن، أي الجماعة، لتوجيه متلقيه (ج) إلى إقصاء (ب) من المجموعة التي تحظى بمكانة لديه، بذلك يصبح "علي" أمام مقارنة تحسمها حداثة سنه وقلة تجربته، تقضي بصرف

---

[1] ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي، رسالة السقيفة، تحقيق ونشر الدكتور ابراهيم الكيلاني، مرجع سابق، ص:10.

[2] تقوم حجة "المجموعة وأفرادها" على أن الفرد تجل لمجموعة ذات سلطة، تؤثر صورة الفرد في المجموعة التي ينتمي إليها، على نحو ما تؤثر المجموعة في الصورة التي تكونها عن الفرد، انظر محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، مرجع مذكور، ص144.

[3] هي الجماعة التي نزل عليهم قوله تعالى" وَالسابِقونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (من سورة التوبة الآية 100).

جاء في تفسير الطبري، أنهم الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم، وفارقوا منازلهم وأوطانهم، والذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه من أهل الكفر بالله ورسوله. أنظر، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، حققه وخرج أحاديثه محمود محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الجزء الرابع عشرة، ص:434.

[4] يمكن اعتبارها استراتيجية خطابية تداخلت في تشكيل المقارنة، فبناء القول بإشراك المتلقي (إنك جد عارف) يضفي مصداقية ويزيد من قوة الطرح الذي يتضمنه القول.

المتلقي عن مُبايعته، فالخطاب يحمل إنكارا ضمنيا[1]، أي كيف يتساوى من كان صبيا غافلا لا يعي ما يدور حوله في زمن الشدة مع أبي بكر؟.

إن الإيطوس الذي يشكله أبوبكر في هذا النمط من الخطاب يقوم على" **التجسيد الخطابي للفضائل التي توحي بالثقة"**[2]، معززا بالصور البلاغية التي تتجاوز كونها مجرد زخرفة تضفي جمالية على الخطاب، إلى إثارة الأهواء والعواطف، إذ يقول لعلي، بينما أنت غافل عما يشبب ويربب، كنا" **نعاني أحوالا تزيل الرواسي، ونقاسي أهوالا تشيب النواصي ، خائضين غمارها، راكبين تيارها، نتجرع صابها...والأرض تميد بالخوف، ولا ننتظر عند المساء صباحا"**[3]

يجسد أبو بكر درجة المعاناة التي تكبدوها عبر الصور البلاغية (الاستعارة)[4] التي "**تكمن قيمتها في نقل صورة هذا الشيء وتحديده في ذهن المتكلم، ومن ثم في ذهن السامع بمجرد النطق بها"**[5] ؛ إنها تجعل من الأحداث التاريخية المستحضرة في الواجهة من وعي المتلقي، وبالتالي تحقق شكلا من أشكال الحضور، فالاستعارة في قوله" **راكبين تيارها، نتجرع صابها**[6]" تقوم على المشابهة بين حال الجماعة التي حاربت إلى جانب الرسول(ص)، وحال من يركب التيار و من يتجرع عصارة الشجر المر (الصاب)، " **إذ إن كل مستعار منه يبني المستعار له بطريقة مغايرة، تريد منه تبيين**

[1] هو المعنى الذي لم يشر إليه لسانيا، وهو معنى أكثر خفاء لا يؤول إلا بحسب معطيات الخلفيات المشتركة والسياق الذي قيل فيه القول، ولذلك كان هو الغاية من القول، وهو بمثابة الإشارة أو النتيجة أو الحكمة من ذلك القول كله، انظر عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير- مقربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، طبعة 2012، ص48

[2] محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، مرجع مذكور، ص:183.

[3] رسالة السقيفة، مرجع مذكور، ص:11.

[4] يذكر إلينا "سيموني" تحديد "شيلتون" للوظائف الثلاث الرئيسية التي تستخدم التعبيرات اللغوية لتحقيقها في السياسة، وهي القسر و الشرعية وسحب الشرعية؛ فالقسر يتحدد بالتأثير على سلوكيات الآخرين، نزع الشرعية يتعلق بتأسيس أو تقويض مصداقية المرء... كما يوضح عبر استعارات بلير كيف أنها تنقل تمثيلا محددا له، يقوم بتأسيس صورته بوصفه قائدا قويا مخلصا لا يتأثر بالصعوبات ولا المعارضات ، انظر كتاب إلينا سيميوني، الاستعارة في الخطاب، ترجمة عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى 2013،ص:199،198 .

[5] أحمد يوسف علي، الاستعارة المرفوضة في الموروث البلاغي والنقدي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، طبعة 2015، ص117.

[6] رسالة السقيفة، مرجع مذكور، ص :11.

بعض صفاته عن طريق تعتيم صفات أخرى له"[1]، ولعل الصفات التي تبينها هاتين الاستعارتين هما المرارة والخطر، لتصبح الاستعارة هنا "**طريقة في وصف الأحداث على نحو يجعلها حاضرة في وعينا**"[2]، إضافة إلى ذلك، يتضمن القول شكلا استدلاليا خطابيا يمكن أن نلخصه على الشكل الآتي:

ما دمنا قدمنا تضحيات في سبيل الوصول إلى ما نحن عليه من استقرار وأمان، فإنه لا يجب أن نهدرها، وعلينا أن نحول أمام كل ما من شأنه أن يزرع العداوة؛ فتعريض "علي" بمثابة سيجار للفتنة، على هذا الأساس يصبح المتلقي مجبرا على التمسك بكل الأسباب التي تمنع الفتنة (مبايعة أبو بكر).

إنها استراتيجية حجاجية تقوم على استثمار الأهواء في تشكيل إيطوس[3] الاستحقاق، المبني على أساس الشرعية التاريخية (التضحيات)، مقابل النيل من "علي" بطريقة غير مباشرة، وكأنه لا يفقده قيمته كي لا يضر بصورته، مراعيا التمثلات الاجتماعية التي يمكن أن تحدث تصديقا لدى متلقيه (أبو بكر حارب مع الرسول ولا يريد الفتنة / علي كان صبيا ويريد الفتنة).

معززا هذه الصورة باستحضاره لحواره مع الرسول (ص)كحجة سلطة، ليصبح **"قوله وحكمه وسائل حجاجية لصالح هذه الدعوى"**[4]،إذ يقوله أبو بكر:

لقد سألت رسول الله على الله عليه وسلم عن هذا الأمر (يقصد الخلافة) فقال لي: يا أبا بكر ! هو لمن قيل له: هو لك، لا لمن يقول: هو لي، ولمن يقاد إليه لا لمن ينتفج إليه"[5]

إن رمزية ومكانة الرسول(ص) الدينية والاجتماعية التي يحظى بها عند المتلقي تجعل قوله حجة لا يمكن التصدي لها، وبالتالي فهي تدعم دعوى "أبي بكر" في أحقيته بالخلافة، وفق النتيجة المضمرة التي تضمنها القياس في هذا الملفوظ:

---

[1] شايم برلمان، تعريب حم النقار، مقال التمثيل والاستعارة في العلم والشعر والفلسفة، مجلة المناظرة، العدد الأول، يونيو 1989، ص 129.

[2] في بلاغة الحجاج، نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، مرجع مذكور، ص309.

[3] مثلما تسهم البنيات اللسانية والوجوه الأسلوبية في بناء الإيتوس، تسهم استراتيجية الأهواء في بنائه، انظر كتاب في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، ص190.

[4] محمد مشبال، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ، مرجع مذكور، ص:84.

[5] رسالة السقيفة، مرجع مذكور، ص:13.

المقدمة الكبرى: ليست الخلافة لمن يقول هي لي.

المقدمة الصغرى: علي يقول الخلافة لي.

النتيجة: علي لا يستحق الخلافة

ويمكن القول أيضا:

المقدمة الكبرى: الخلافة لمن قيل له هي لك.

المقدمة الصغرى: الأنصار والمهاجرون قالو لأبي بكر الخلافة لك.

النتيجة: أبو بكر يستحق الخلافة.

فبالإضافة إلى استناده لحجة السلطة التي تكسب القول قوة حجاجية، يمكن النظر إليها أيضا بوصفها علامة دالة على تشبثه بقول الرسول(ص)، والظهور بصورة الحريص على تطبيق ما جاء به في اختيار الخليفة.

4.استراتيجية الإلزام برد الجميل:

تقضي هذه الاستراتيجية بأن يستحضر المساجِل مجموعة من الأعمال أو المواقف المحمودة التي قام بها لصالح المساجَل، محاججا بها للتأثير في عاطفته وحمله على رد المعروف، فإيراد الجميل في هذا السياق المخصوص بمثابة استراتيجية لا تنفصل عن صورة المتكلم الحريص على تقديم كل ما هو خير، وذلك" **يتيح له إمكانية جعل ما يمكن أن يكون موضع تنازع شديد ومرفوضا بقوة قابلا للتسامح**[1]، محاولا التأسيس لخطاب يلزم مساجِله بالعدول عن تعنته وبمبايعته، إذ يقول:

"والله لقد شاورني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصهر، فقلت: أين أنت من علي؟ فقال: إني لأكره لفاطمة ميعة شبابه، وحدة سنه، فقلت له: متى كنفته يدك، ورعته عينك، حفت بهما البركة، وأسبغت عليهما النعمة مع كلام كثير خطبت به عنك، ورغبته فيك، وما كنت عرفت منك في ذلك حوجاء ولا عوجاء، فقلت ما قلت و أنا أرى مكان غيرك، وأجد رائحة سواك، وكنت لك إذ ذاك خيرا منك الآن لي"[2].

[1] ميشيل مايير، الحجاج والبلاغة والأشكلة، ترجمة وتقديم ادريس جبري، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد العاشر، مطبعة النجاح الجديدة،2017، ص123.

[2] رسالة السقيفة، مرجع مذكورص:13.

ففي هذا الملفوظ الذي يسرد فيه أبو بكر حواره مع الرسول (ص) ومشاورته إياه في الصهر، يصطفي أبو بكر علي دون غيره من الصحابة ويقترحه كزوج لفاطمة، حيث استهل خطابه بالقسم (والله)، فالمخاطَب بهذا التوكيد الذي لا يخضع لمعيار الصدق والكذب، لا يستطيع أن يعترض على صدق الخبر المعروض أمامه؛ لأن " **القسم يعمل على توجيه الملفوظ و إثباته وجعله مما يحمل على أنه و اقع لا محال**[1]،كما يضفي مصداقية على صاحب القول مستمدة من المقسم به (الله).[2]

يحيل الخطاب على إصرار أبي بكر في اختياره لعلي كزوج مناسب لفاطمة، رغم قول الرسول(ص) أنه يكره " لفاطمة ميعة شبابه، وحدة سنه"، ويُظهر لنا سمة من سمات شخصية أبي بكر وهي حبه لعلي، الذي رام إظهاره في هذا المقام لمتلقيه المخصوص(**مع كلام كثير خطبت به عنك)**، إذ **يبدو حريصا على مصلحته ومستعدا لتقديم ما هو خير له**،[3] وهو ما يؤكده الموقف الذي يخدم استراتيجية تروم حمل علي على التفكير والشعور، وكذا إلزامه بالتعاون قياسا على الفعل المنجز من طرف أبي بكر، فقوله لعلي" **وكنت لك إذ ذاك خيرا منك الآن لي"**[4] يحمل دعوى مفادها: أدعوك إلى الوقوف بجانبي وأن تكون لي سندا كما كنت معك سابقا.

بيد أن السياق السجالي يوجه المتلقي العام أيضا إلى موقف الرسول (ص) من علي كزوج لفاطمة، فقد كان يخاف على فاطمة من ميعة شبابه وحدة سنه، فما بالك بتوليه لأمور الخلافة من بعده؟

إضافة إلى هذه الملفوظات التي شحذها أبو بكر ضمن هذه الاستراتيجية الحجاجية للتأثير في علي وحمله على مبايعته، يقول أيضا:

---

[1] عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2001، ص 323.

[2] ورد أسلوب القسم في قوله أيضا "والله ما اشتاق إلى ربه تعالى، ولا سأله المصير إلى رضوانه إلا بعد أن ضرب الصوى، (الصوى حجارة توضع لهدي المارين)، رسالة السقيفة، م سابق، ص 14

[3] هو مفهوم البر عند أرسطو باعتباره جزءا من إيتوس الخطيب (انظر كتاب الحسين بنوهاشم، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، مرجع مذكور، ص 305.)

[4] رسالة السقيفة، م سابق، ص :13

" وبعد فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك في دار واحدة، وبقعة جامعة، إن استقادوا لك، أو أشاروا إلي فأنا واضع يدي في يدك، وصائر إلى رأيهم فيك، وإن تكن الأخرى فادخل في صالح ما دخل فيه المسلمون."[1]

يقوم خطاب أبي بكر لعلي في هذا السياق على الإقرار والتسليم بسلطة الاجماع (المهاجرون والأنصار)، باعتبارها شرطا أساسا لتولي الخلافة، فجاء قوله مبنيا بناء شرطيا (إن لم+ الشرط/ ف + جواب الشرط)

إن استقاموا لك = فأنا واضع يدي في يدك.

إن لم يفعلوا= فادخل فيما دخل فيه صالح المسلمين.

بذلك يكون علي أمام سلطة المهاجرون والأنصار كمحدد لتوليه أمور الخلافة، إذ بيّن أبو بكر أنهم وحدهم من يحدد الخليفة من بعد الرسول(ص)، وأنه مع تولي "علي" لأمور الأمة في حال تمت مبايعته من طرفهم، مما يجعله يظهر بصورة الشخص الذي لا يسعى إلى السلطة، والحريص على اختيارات الرعية ورغباتهم، ناصرا للحق وداعيا للتعاون على البر، "**فقد أمر الله بالتعاون على البر، وأهاب إلى التناصر على الحق**".[2]

لقد جاء قول المساجل ضمن استراتيجية حجاجية قائمة على استثمار سلطة الإجماع (المهاجرون والانصار) وجعلها الفصل والحكم، نزع فيها أسلوب الشرط، حيث إن أبا بكرا كان يعلم بأن المهاجرون والأنصار لم يجمعوا على علي؛ لكنه عمد على جعل استقامتهم له شرطا، وبالتالي إلزامه بنتائج جملة الشرط الثانية، أي الدخول فيما دخل فيه المسلمون؛ لأن سياق معاندة علي كان بعد إجماعهم على مبايعة أبي بكر، وهو ما يؤكده أبو عبيدة.[3]"

وعليه، فالنظر إلى كيفية تشكل هذه التقنيات والاستراتيجيات الحجاجية (الإيتوس مثلا)، ومدى مساهمتها في الإقناع، لا يمكن أن يكون بمعزل عن الحجج والأساليب الملتحمة التي تشكل بلاغة هذا النمط من الخطاب بشكل عام.

---

[1] رسالة السقيفة، م سابق، ص:15.

[2] نفسه

[3] لما استقامت الخلافة لأبي بكر رضي الله عنه بين المهاجرين والانصار، لحظ بعين الهيبة والوقار، وإن كان لم يزل كذلك... بلغ أبا بكر الصديق عن علي تلكؤ وشماس (رسالة السقيفة ص:7).

خـــاتـــمة:

لقد مكننا فحص الصورة الخطابية للمتكلم في الخطاب السجالي وتحليلها وفق المقاربة الحجاجية من القول، إن الإيطوس يتسم بخصوصية بلاغية، حيث إنه تشكل في سياق خاضع لمجموعة من المبادئ والمعايير التي تفرضها الشروط التداولية(يتعلق الموضوع بقضية الخلافة)، ومن ثم فإن الذات المساجلة تسعى للحصول على إذعان السامع للضفر بالسلطة والحكم.

لقد رام المساجل في رسالة السقيفة رسم صورته بناءا على استراتيجية حجاجية تجعله يحسم الصراع ويثبت أحقيته بالخلافة، إنه ما اقتضي منه الظهور بشكل مقبول أخلاقيا، ويتوافق مع التصور المشترك لصورة الخليفة، يجعله ذلك أهلا لاستلام السلطة الدينية والسياسية دون غيره، وهو ما يُلزم المساجِل بالعدول عن تعنته ومبايعته، مقابل إثارة انفعالات تقلل من قيمة خصمه.

إن الإيطوس في هذا النمط من الخطاب حواري متغير (لا يبقى ثابتا)، خاضع لخصوصية و مكانيزمات المساجلة، ووليد للمقام الذي تشكل فيه؛ إذ لا يكتفي المساجل هنا بأن يبدو بصورة جديرة بالثقة، ومقبولا أخلاقيا؛ وإنما يجب أن يظهر بصورة قوية أيضا؛ فقد يبنى المتكلم صورة لنفسه تجعله مناسبا ومؤهلا لدور ما (الخلافة) في سياق معين، دون أن يكون كذلك بالنسبة لشخص آخر، وهنا لا يصير الهدف من الحجاج نقل عدوى القبول فقط، وإنما قد يصبح شكلا من أشكال الإلزام وفرض السلطة /" سلطة الإيطوس.

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع.

المصادر:

- ابن منظور، لسان العرب، دار الصادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1979.
- أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، حققه وخرج أحاديثه محمود محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي، رسالة السقيفة، تحقيق ونشر الدكتور ابراهيم الكيلاني، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، 1951.

المراجع:

- أحمد يوسف علي، الاستعارة المرفوضة في الموروث البلاغي والنقدي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، طبعة 2015.
- الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى 2014.
- إلينا سيميوني، الاستعارة في الخطاب، ترجمة عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى 2013.
- عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير- مقربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، طبعة 2012.
- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2001.
- عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي، بلاغة النص التراثي- مقاربة بلاغية حجاجية، إشراف محمد مشبال، دار العين للنشر، طبعة 2013.
- محمد مشبال، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ، مقاربة بلاغية حجاجية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2015.

- محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى،2016.
- نور الدين بن بلقاسم، أصداء المجتمع والعصر في أدب أبي حيان التوحيدي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، طرابلس، الطبعة الأولى 1984.
- حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، أفريقيا الشرق، طبعة 2012.
- حمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى ،2008.

المجلات والدوريات:

- باتريك شارودو، الإقناع في الخطاب السياسي، ترجمة محمد الولي، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، مطبعة النجاح الجديدة، العدد السادس، ،2015.
- ميشيل مايير، الحجاج والبلاغة والأشكلة، ترجمة وتقديم ادريس جبري، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد العاشر، مطبعة النجاح الجديدة،2017.
- باشا العيادي، السجال في الأدب العربي أشكاله ووظائفه، مجلة الأزمنة الحديثة، العدد الخامس، الجاحظ أنموذجا،ص200.
- شايم برلمان، تعريب حم النقار، مقال التمثيل والاستعارة في العلم والشعر والفلسفة، مجلة المناظرة، العدد الأول، يونيو 1989.
- عبيد حاتم، في تحليل الخطاب السجالي، تعقيب عبد الرزاق بنور علي، كتاب" أهم نظريات الحجاج أنموذجا، مجلة فصول، مصر، العدد 75، 2009.